العراق، وقاتل، وانتصر. ولم يتمّ ذلك، بالطبع، صدفة؛ بل جاء نتيجة جدّ، ومثابرة، وعقلانية، وتصميم، لم نعهد مثلها لدى انظمة عربية أخرى. فللوقوف ضد هذه الهجمة الايرانية الشرسة، جنّد العراق كل طاقاته، واقام شبكة من العلاقات العلنية، وغير العلنية، مع دول عربية (مصر والاردن، مثلاً)، وأخرى اجنبية، مكّنته، بطريقة او بأخرى، من تأمين ما يحتاج اليه من سلاح وعتاد، ثمّ راح يطور اسلحة بنفسه، ومنها، على سبيل المثال، الصواريخ التي فرضت عليه. ونقول «فرضت» لأن العراق، كما هو معلوم، لم يكن البادىء باستعمال الصواريخ خلال الحرب ضد ايران. بل ان بغداد وبعض المدن العراقية الأخرى بقيت تتعرض لهجمات بالصواريخ، من ايران، على الاحياء السكنية فيها خلال فترة غير قصيرة، الى ان قرّر العراق (او تمكّن) من الرد على الصواريخ بمثلها؛ ثمّ راح يطور صواريخه الخاصة به، قالباً الميزان، في هذا المجال، في غير صالح ايران. ولم يوقف النظام الايراني اطلاق الصواريخ على بغداد الّا بعد ان راحت العاصمة الايرانية، طهران، تتلقى «وجبات» من الصواريخ العراقية تعادل تلك التي سقطت على بغداد، او تزيد عليها.

ولم يكن هذا المجال هو الوحيد الذي اظهر العراق فيه كفاءة ونجاعة خلال الحرب؛ بل ان هنالك نواحي أخرى لا تقل اهمية عنه، وكذلك ـ وهذا هو الأكثر اهمية ـ لم نعهد مثلها سابقاً لدى الجيوش العربية. فخلال الحرب الايرانية ـ العراقية تمكّن العراق، في غير مرة، من صد هجمات ايرانية يمكن وصفها بأنها «مرعبة»؛ اذ كان يشارك فيها عشرات، بل مئات، الآلاف من الجنود الايرانيين الذين يهاجمون، في الوقت عينه، على امتداد عشرات الكيلومترات، على طول الحدود. وفي الحالات التي كان الجيش الايراني يحرز اختراقاً، هنا او هناك، ويحتل اراضي عراقية، كان الجيش العراقي، بعد فترة، طويلة او قصيرة، يعيد الكرّة ويطرد الايرانيين من على الاراضي التي احتلوها. والفرق بين هذا المستوى من الاداء ومستوى جيوش عربية أخرى واضح للغاية؛ اذ كدنا «نعتاد» على ان جيوشاً عربية، عندما تدخل في مواجهة، تهزم وتحطّم خلال أيام، واحياناً خلال ساعات. وبعد ذلك يعاد، بالطبع، بناء تلك الجيوش، ولكن من الناحية المادية فقط؛ بينما يبقى الخوف مسيطراً على قادتها الذين يبذلون كل ما في وسعهم لتجنّب مواجهة أخرى مع العدو، ويقرّون له، بالتالي، باختصار شديد، بالتفوق والسيطرة. وتكاد هذه المقارنة تنطبق على اداء الطيران العراقي أيضاً، الذي كان، خصوصاً عندما يشتد القتال، يقوم بعشرات الطلعات، ليلاً نهاراً، فوق الجبهة وفي عمق الاراضي الايرانية. ونذكر مرة، عندما تعرضت بغداد لقصف وحشي بالصواريخ الايرانية استمر متقطعاً، خلال ليلة بكاملها، كيف قدّم العراق، في اليوم التالي، جواباً «مقنعاً»، تمثل في غارات عنيفة شنها الطيران العراقي ـ حسب البلاغ الايراني ـ على ١٥ مدينة ايرانية، في انحاء ايران الواسعة كافة، وفي الوقت عينه، موجهاً ضربات قوية للمواقع الاستراتيجية، والانتاجية، يساهم تدميرها، على وجه العموم، في «تهدئة» خواطر الخصوم والاعداء؛ ودون التعرض، مثلاً، الى التجمّعات السكانية، كما يليق بمن يقاتل بشهامة. وفي هذا المجال، ايضاً، يبرز الاختلاف في الأداء، بالمقارنة مع اسلحة الطيران العربية الأخرى؛ اذ، هنا، أيضاً، كدنا «نعتاد» على ان الطيران العربي يقام ويدعم لكي تدمر طائراته، عندما تحين الساعة، وهي جاثمة على الارض (العام ١٩٦٧ مثلاً)، او لكي تسقط، وتسقط فقط، عندما تطير لتواجه طائرات العدو («المواجهات» التي حصلت بين سلاحي الطيران، السوري والاسرائيلي، خلال السبعينات والثمانينات، مثلاً).

ولا بد من الاشارة، في هذا الصدد، الى ان الموقف السياسي العراقي، خلال تلك الحرب، لم يكن يختلف كثيراً في عقلانيته، وبالتالي نجاعته، عن الموقف العسكري. فقد امتازت سياسة العراق، خلال فترة الحرب بأسرها، بالاعتدال والعقلانية. فالعراق لم يتوقف، خلال الحرب، عن الدعوة الى